# أُولى المدارس الإسلاميّة

ميرنا قره/ سورية



قَديمًا.. قُدِّرت قيمة الإنسان على قدر ما يمتلك من العلم والحكمة، ومن بعدهما يأتي نسبه، ومع بداية ظهور الدّعوة الإسلاميّة، حظيَ التّعليم باهتمامٍ خاصٍّ وتشجيعٍ كبيرٍ على الرّغم من أنّ المدارس لم تكن قد وُجدت بعد، فكان المسلمون يرسلون أبناءهم إلى المساجد والكتاتيب ومنازل العلماء ليتعلّموا أصول اللّغة والقراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن والخطّ. وقد شجّع الرّسول الكريم ﷺ على المعرفة والعلم، فكان يجلس في مكّة في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فيتحلّق حوله المسلمون ليُطلِعهم على أصول دينهم ويخطب فيهم، كما استعان في تعليم المسلمين ممّن يرغبون بالعلم، بمعلّمين من اليهود والمسيحيّين. ويُذكر أنّه في غزوة بدر، قد جعل شرط عتقِ الأسرى من غير المسلمين، ممّن يتقنون القراءة والكتابة، أن يعلّم واحدُهم عشرة أشخاصٍ من المسلمين حتى ينال حريّته.

## الاهتمام بالخطّ

أوْلى الرّسول ﷺ بشكلٍ خاصٍّ اهتمامًا بالغًا بتعليم الخطّ، فقد أَوْكل إلى المسلمين ممّن يجيدون القراءة والكتابة أن يدوّنوا ما يتلوه على أسماعهم من الآيات القرآنيّة، إضافةً إلى الأحاديث النبويّة الشّريفة، وكان يُرسل إلى القبائل من يُقرِئُهم القرآن، فانتشر المعلّمون الجوّالون. ومن بعده تابع الخلفاء الاهتمام بالخطّ كونه أحد الفنون الرّاقية والجميلة، إذ ظهر تأثيره بقوّةٍ في طابع العمارة والهندسة والزّخارف الإسلاميّة، وفي النّقل عن الكتب وتدوين المخطوطات والمراسلات، فأجزلوا للمشتغلين بالخطّ العطايا، وجعلوهم يشغلون المناصب الرّفيعة والوظائف المهمّة في الدّولة. ويَذكر الجغرافيّ والمؤرّخ (ابن حوقل) في إحصائيّةٍ أجراها، أنّه في القرن العاشر في مدينة باليرمو في صقلية بعد الفتح الإسلاميّ، كان يوجد فيها وحدها أكثر من ثلاثمئة معلّمٍ للخطّ.

## بداية الكتاتيب

في بادئ الأمر كان الكُتّاب عبارةً عن غرفةٍ في بيت المعلّم، وكان يستقبل فيها طلّاب العلم من الأطفال، وفي القرن الثّاني للهجرة، ارتفع عدد المعلّمين الّذين كان غالبيتهم لا يتقاضَوْن أجرًا لقاء عملهم، معتبرين فتح بيوتهم لتعليم الأطفال حسنةً لوجه الله تعالى يُؤجَرون عليها، وقلّة منهم كانوا يتقاضون أجورًا رمزيّةً، ومع ازدياد عدد الطلاب بات من الضرورة بناء كتاتيب واسعة المساحة، فتسابق المسلمون الأثرياء إلى بنائها حتّى باتت متوفّرةً في كلّ قريةٍ ومدينةٍ، وكان بعضها يُلحق بالمساجد.



## التعلّم في المساجد

لعبت المساجد في العصور الإسلاميّة الأُولى دورًا بارزًا في النّهضة الفكريّة وانطلاق الحضارة الإسلاميّة وانتشارها إلى الأصقاع كافّة، فبالإضافة إلى كونها دورًا للعبادة، فقد كانت معاهدَ إشعاعٍ وتنويرٍ، تُدَرَّس فيها أصول التّربية الفكريّة والدّينيّة والثّقافيّة الإسلاميّة، ويُعدُّ مسجد قباء أوّل مسجدٍ بُني في الإسلام. وبعد دخول النّبيﷺإلى المدينة المنوّرة، بُني فيها المسجد النّبويّ، ومع انتشار الإسلام، ظهر بناء المساجد في كلّ البلدان، وللمُحافظة على طهارة المساجد، فقد اتّخذ المعلّمون بعض الزّوايا والحجرات للتّعليم في المرحلة الثانويّة والعليا، ومُنح المتعلّمون مكافآتٍ ماليّةً ومِنَحَ لحثّهم على متابعة تحصيلهم العلميّ، ومِن أوائل مَن تعلّموا في المساجد علي بن أبي طالب وعبدالله بن عبّاس. ويذكر المقريزيّ أنّه في مسجد عمرو بن العاص، كانت تُدار ثماني حلقاتٍ لمختلف العلوم، نذكر منها حلقة الإمام الشّافعيّ التي درّس فيها عام 182 للهجرة، والزّاوية الصّاحبيّة الّتي نظّمها الصّاحب محمّد بن فخرالدّين، وفرز لها مدرّسَيْن اثنين ليدرِّسا الفقه على مذهبَي الإمامَيْن الشّافعيّ والمالكيّ.

ومن المساجد الّتي كانت لها الرّيادة في التّعليم، الجامع الأزهر الشّريف، الذي بناه جوهر الصّقلّيّ في مصر عام 361 للهجرة، في زمن المعزّ لدين الله الفاطميّ، وقد زُوّد بمكتبٍ خاصٍّ بأيتام المسلمين لتحفيظهم القرآن الكريم والفقه على المذهب الحنفيّ، والمسجد الأُمويّ في دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك، وكذلك جامع المنصور الذي بناه الخليفة أبو جعفر المنصور.

## التّعليم في العمارة

برزت هذه المباني الدّينيّة كواحدةٍ من خصائص الحضارة الإسلاميّة، وخصوصًا في زمن المأمون، حيث بلغت النّهضة العلميّة والدّينيّة والفكريّة عصرها الذّهبيّ، فكانت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وبيوت العلماء مفتوحةً لإلقاء الدّروس والمحاضرات، كذلك في عهد الطّولونيّين، كما هي الجامعات في أيّامنا هذه.

## ظهور المدارس

تُرجِّح المصادر أنَّ أوَّل مدرسةٍ إسلاميّةٍ هي مدرسة الإمام أبي حفص الفقيه من بُخارى عام 217 للهجرة، تليها مدرسة نيسابور التي أنشأها الإمام أبو حاتم محمد بن حبان التّميميّ الشّافعيّ، والمدرسة البيهقيّة.

في العام 391 للهجرة، ظهرت في دمشق المدرسة الصّادريّة الّتي أنشأها الأمير شجاع الدّولة صادر بن عبدالله، والمدرسة الرّشائيّة التي أسّسها المُقرئ الدّمشقيّ رشأ بن نضيف، كما قام الأمير الغزنويّ النّصر بن سبكتكين ببناء المدرسة السّعديّة.

وفي العام 622 للهجرة، قامت أوّل مدرسةٍ في المدينة المنوّرة، وسرعان ما افتُتحت المدارس في كلّ المدن الإسلاميّة، ففي القرن الثّامن الميلاديّ كان في قرطبة مئات المدارس، وكان يبدأ تعليم الأطفال في السّادسة من العمر، والتّعليم فيها شبه مجّانيٍّ، حيث كان أوّل ما يتمّ تعليمه هو كتابة أسماء الله الحُسنى، والسّور القصيرة من القرآن الكريم، والحساب.

وفي القرن العاشر للميلاد قام السّلاجقة بافتتاح أوّل مدرسةٍ بمنهاجٍ تعليميٍّ خاصٍّ بها، وهي المدرسة النّظاميّة، التي أسّسها الوزير نظام الملك البغداديّ، وكان لكلّ مدرسةٍ إيواناتٌ خاصّةٌ بها تُستخدم كصفوفٍ، وقاعاتٌ للاجتماعات، وأماكنُ للوضوء وأُخرى للصّلاة، وباحةٌ. وكان يتوجّب على المدرّس أن يحصل على موافقةٍ خاصّةٍ لمزاولة مهنة التّعليم.

ويحضرني أن أستعرض ما أوصى به المعلّم الإسلاميّ الكبير (ابن الحاجّ) حول المدارس والمدرّسين في القرن الرّابع عشر:

"يجب أن تكون المدارس في السّوق أو في شارع مزدحمٍ، وليس في مكانٍ معزولٍ، لأنّها أمكنةٌ للتّعليم وليست موضعًا للطّعام، لذلك لا ينبغي أن يُحضر الطلبة معهم زادًا أو نقودًا. ويجب أن يكون للمعلّم وكيلٌ أو مساعدٌ يهيّئ الصّفّ ليجلس كلّ طالبٍ في مكانه، ويستقبل الزّوار ويُنزل كلًا منهم حيث يستدعي مقامه وتتطلّب مرتبته، وعليه أن يوقظ النّائمين، ويُنذر الّذين يتصرّفون بما لا ينبغي أو يُهملون ما يترتّب عليهم فعله، ويأمرهم بالإصغاء إلى التّعليمات، ويمنع الكلام والضّحك والمُزاح داخل الصّفّ".

وفي القرن الرّابع عشر الميلادي، بُنيَت في مدينة دلهي في الهند مدرسة قطب منار. وفي القرن السّابع عشر للميلاد، بُنيَت مدرسة شيردار في سمرقند.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تلك المدارس كانت تخضع لرقابةٍ وإشرافٍ مباشر من الخليفة.

الجامع الأموي/ دمشق



## المدارس في زمن العثمانيّين

يُنسب إلى الملك المسعود الأرتقي إنشاء أُولى مدارس الأناضول في منطقة ديار بكر. وقد تميّز نظام التّعليم في أيّام العثمانيّين في القرن الخامس عشر للميلاد، باعتماده نظام (الكليّة)، وهي عبارةٌ عن صروحٍ ضخمةٍ على غرار الجامعات، يُلحق فيها مسجدٌ ومستشفىً وقاعةُ طعامٍ ومطبخٌ ومدرسةٌ وسكنٌ للطّلاب، ككليّة الفاتح في إسطنبول، وكانت تعتمد هذه الكليّات في تمويلها وتغطية نفقاتها على ما يجود به الأسخياء المُحسنون من الأموال والهبات، وما يقدّمونه من الصّدقات ومن كفالتهم للفقراء، وكليّة بايزيد الثّاني في أدرنة، وهي مجمّعٌ يحوي على مدرسةٍ وجامعٍ ومستشفى.

## أُولى المدارس الخليجيّة

تُعتبر المدرسة المباركيّة من أوائل المدارس الشّهيرة في منطقة الخليج العربيّ، وقد سُمّيت كذلك نسبةً إلى مؤسّسها الشّيخ مبارك الصّباح، وهي أوّل مدرسةٍ نظاميّةٍ في الكويت، حيث تمّ افتتاحها في تاريخ 22 كانون الأوّل عام 1911 للميلاد، ويرجع الفضل في تأسيسها لكل من: يوسف بن عيسى القناعيّ، والشّيخ ناصر المبارك الصّباح، وياسين الطبطبائيّ الّذي كان لكلمته

التي ألقاها في ديوان يوسف بن عيسى عام 1910 للميلاد، في احتفاليّةٍ بمناسبة ذكرى المولد النّبويّ الشّريف، الأثر المباشر لإحداث المدرسة، إذ قال:

"ما يفيدكم أيّها السّادة استماع القصّة إنْ لم تقتدوا بنبيّكم صلّى الله عليه وسلّم. إنّ القصد من تلاوة المولد هو الاقتداء برسول الله، ولا نعرف سيرته حقّ المعرفة إلّا بتعلّمها، ولا نتعلّمها إنْ لم يكن لنا مدارسُ ومعلّمون يُفيدون النّشء... لا بدّ من سراجٍ يضيء طريقنا المظلم، ولا سراج كالعلم، ولا علم دون مدارس".

ومن حينها انطلقت حملة التبرُّعات، وتضافرت جهود أبناء الكويت بشعبها وأُمرائها لأجل تنفيذ هذا المشروع الضّخم، حتّى أصبحت المدرسة واقعًا، وفي يوم الافتتاح بلغ عدد طلابها 254 طالبًا، وكانت واحدة من أهمّ منابع الفكر والمعرفة ليس في البلاد حسب، بل وعلى مستوى المنطقة، وقد تمّ تحويل هذا الصَّرح في العام 1985 ميلاديّ إلى المكتبة المركزيّة في الكويت.

## المراجع:


- كتاب التربية الإسلاميّة، محمد عطية الأبراشي، ط3، القاهرة، دار إحياء الكتاب العربيّة، 1975، ص90-70.
- تاريخ التعليم في الكويت، صحيفة الرأي الكويتيّة، 28 حزيران/ يونيو 2010، العدد 11319.
- عارف عبد الغني، نظم التعليم عند المسلمين، ص89.
- محمد علي الرجوب، الإدارة التربويّة في المدارس في العصر العباسيّ، ص95.

الجامع الأزهر/ القاهرة